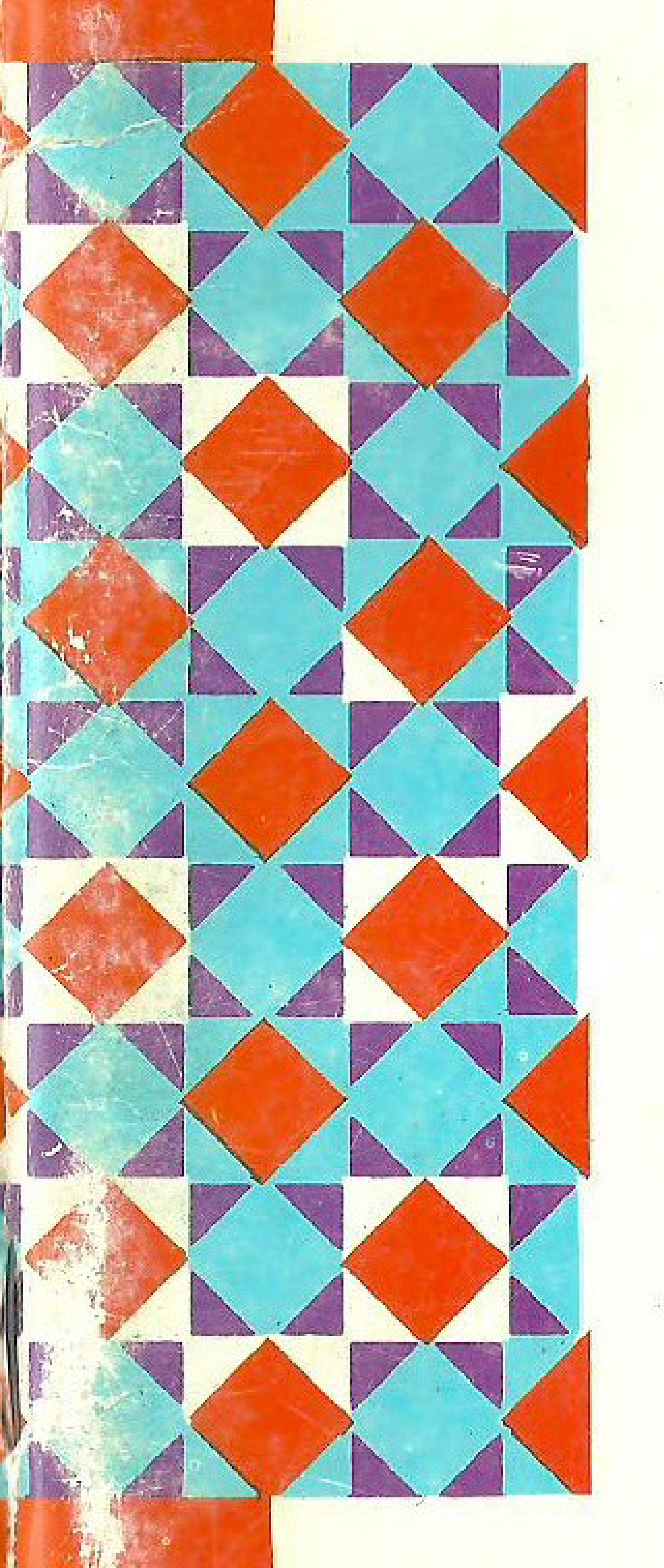
علماء
العرب
٥

ابن البيطار



قصة عالم نبات مسلم ، عاش منذ ثمانمائة عام . غرس النباتات النادرة في الحدائق ، وساح في أرجاء الأندلس والمغرب الكبير وآسيا الصغرى واليونان والشام لمعرفة عالم النبات . ووصف ألفا وأربعمائة نبات . وتحدث عن العلاج بها . ومن بينها ثلاثمائة نبات من اكتشافه . وصار رئيسًا للصيادلة بمصر والشام . وألف كتابين في العلاجات النباتية والمعدنية والحيوانية . وصارت كتبه من بعده مرجعًا للصيادلة والأطباء وعلماء النبات . إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء ـ القاهرة

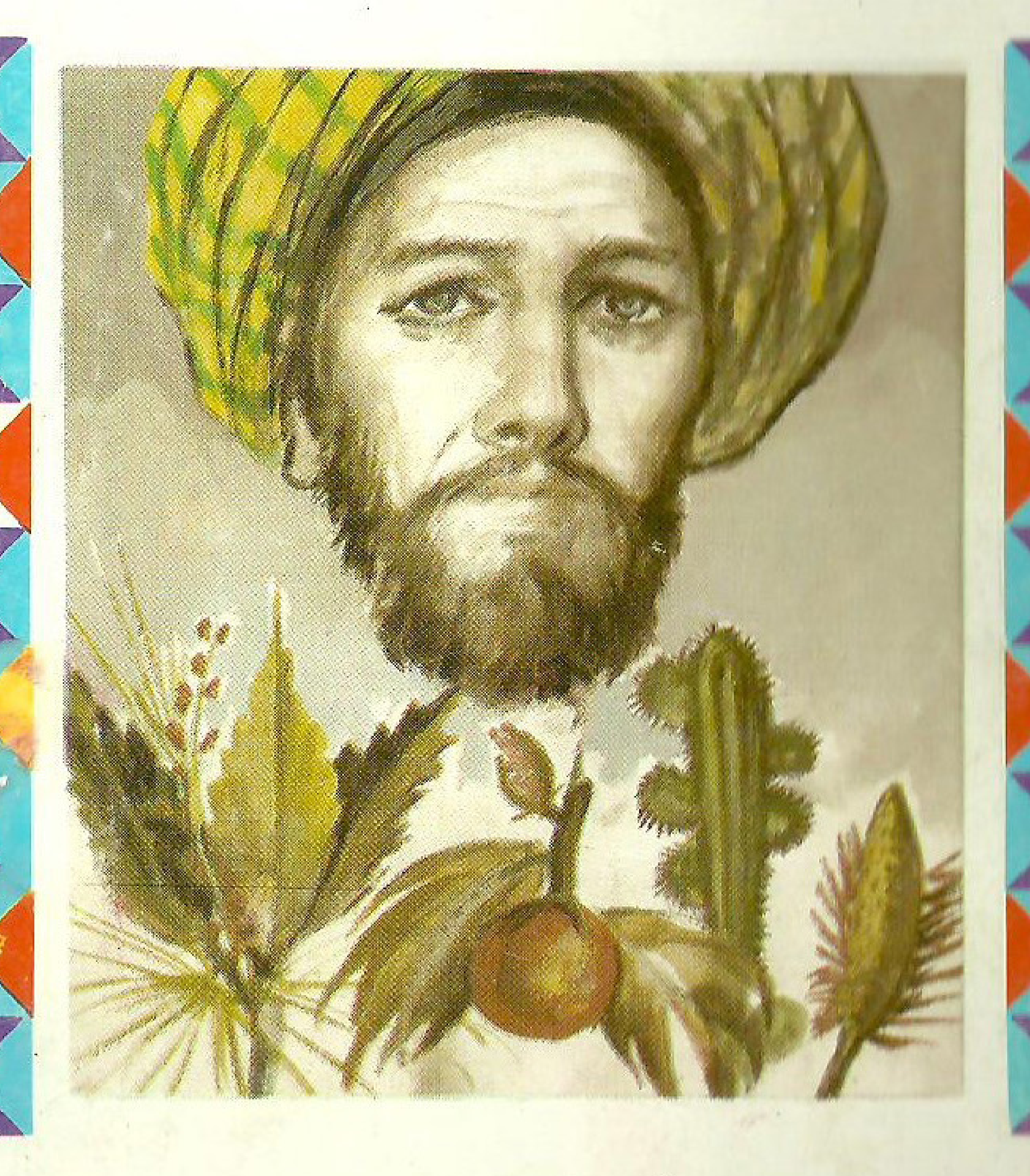
مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر



علماء العرب

ابن البيطار

عالم النبات



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب

ابن البيطار

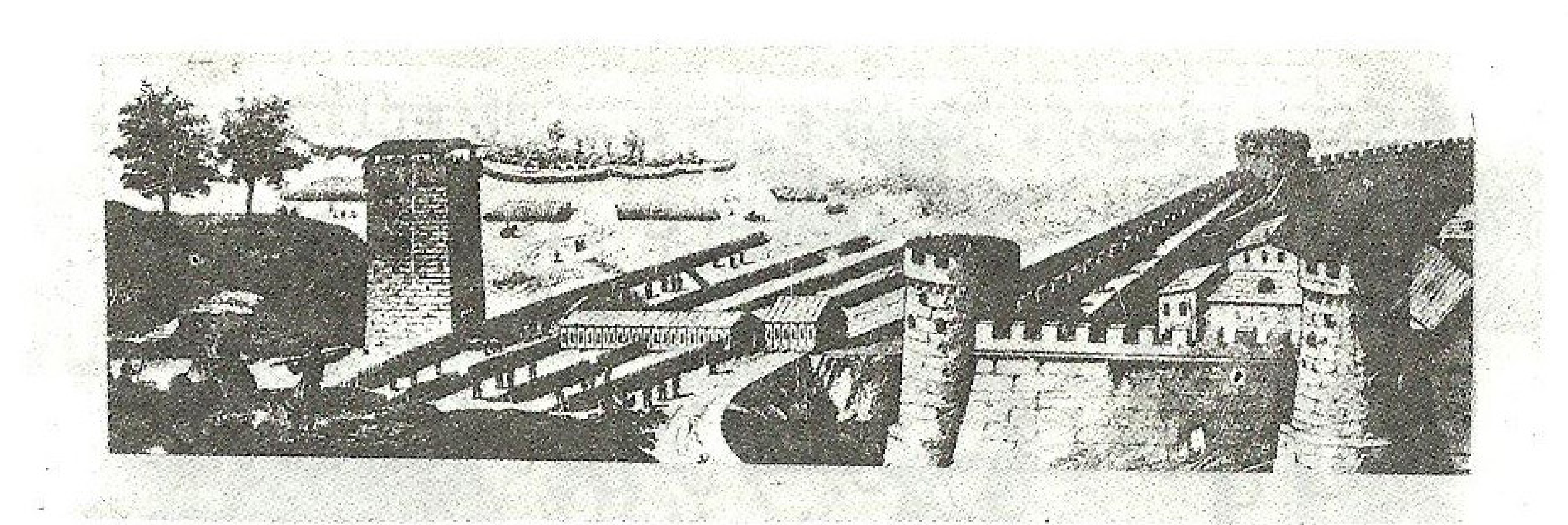
عالم النبات



سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

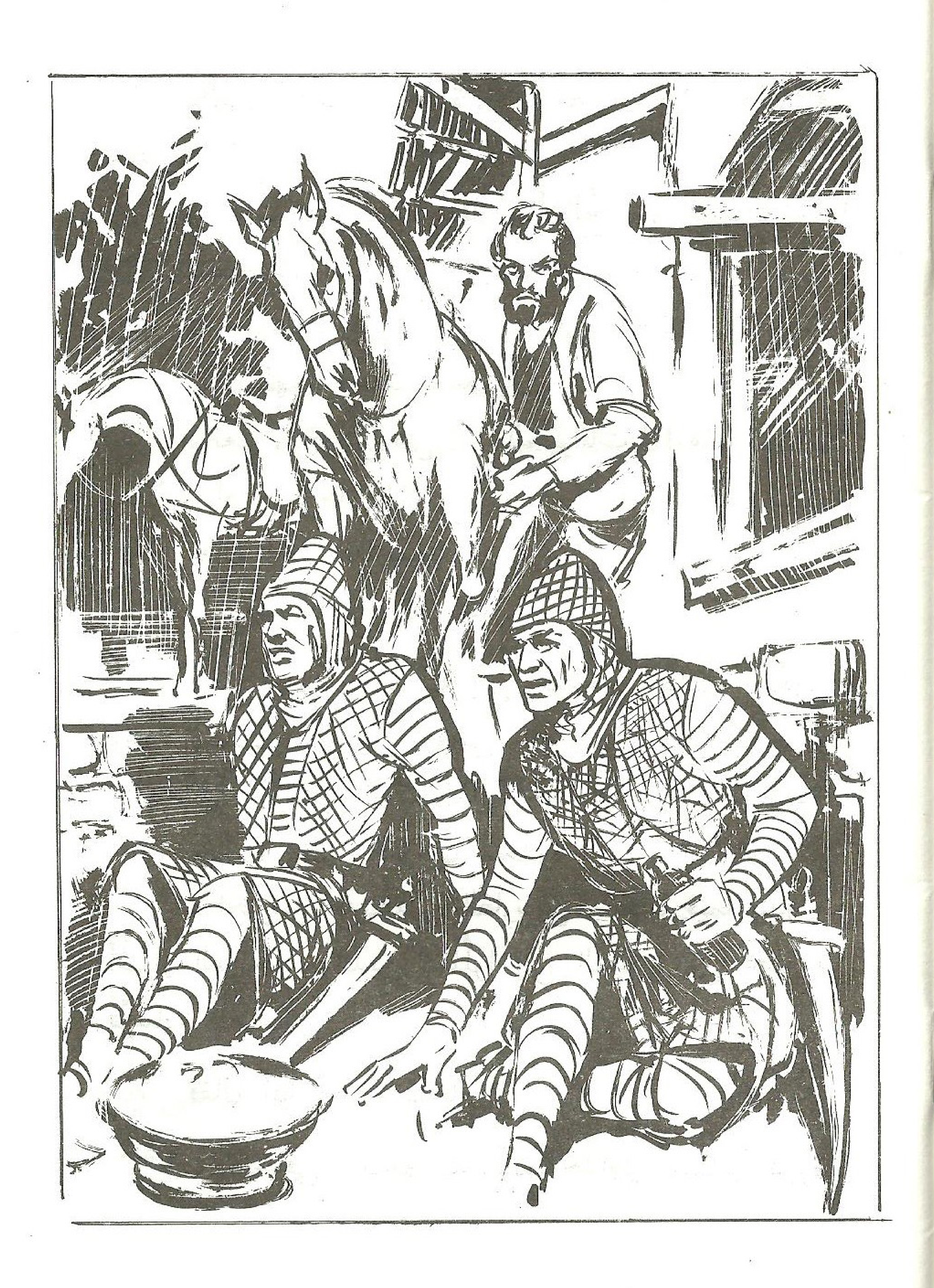
الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠١ يوان



مدينة . . على البحر

قبلَ سبعمائةِ عام ، كانت مدينة « مَلَقا » مدينةً عربيةً جميلة ، تقعُ على الشاطىءِ الجنوبى الشرقى بالأَنْدَلُس (إسبانيا الآن) . كانت مدينةً عامرةً بالبساتين ، يمرّ بها النهر ، تضِجُّ فى النهار بأصواتِ الحِرَفِيِّين الذين يصنعُون الصابونَ ، ويستخْلِصُون زيتَ الزَيْتونِ ، وبأصواتِ البحَّارة فى مينائِها الذى تفِدُ إليه السفنُ وتذهب . وفى الليل ، بالقُرب من جَبَل الفتْح ، كانت « مَلَقا » تسمُرُ وتنام ، وقد أغْلقتْ أبوابَ أسوارِها الحصِينة ، على أصواتِ الموسيقى ، وأغانِى الموشّحات الأندلُسيّة ، وحكاياتِ الحروبِ بين العربِ والفِرنْجَة ، وقِصَصِ الفِتَنِ والثَّوْرات ، فى عهودِ ملوكِ الطوائفِ ، وسلاطينِ المرابِطين ، والموحِّدين .

وكانت فصولُ العام تمرُّ على « مَلَقا » بسَماواتٍ رائِقةٍ ،



وسَمَاواتٍ مُلَبَّدةٍ بالسحب غزيرةِ الأمطار ، وسماواتٍ تعكِسُ بياضَ الثلوجِ على قِمَمِ جَبَلِ الفتْح وسُفُوحِه ، وفوقَ سُقُوفِ البيوت ، وَهَامَات الأشْجار .

وعند الفجر ، فى كلِّ الفصول ، كانتْ تصْدَحُ فى ميناءِ « مَلَقَا » أصواتُ البواخِرِ ، والسُّفنِ الصغيرة ، الداخلةِ إلى الميناءِ والخارجةِ منه ، ترقبُها عيونُ الحراسِ فى قلْعة « مَلَقَا » المهيبة ، ومن وراءِ فتحاتِ الأسوارِ الشامخة .

وفى مدينة « مَلَقَا » كان يعيشُ « أحمد البيطار » ، مع زوجتِه : « نُعْمى » وابنِه : « عبد الله » . كانت حرفةُ أحمد هى البيْطرة (علاج الحيوانات) . وأحيانا ، كان يقُوم بتركيبِ الحَدَاوَى لحوافِرِ خيلِ الفرسان . وكان أحمد قد بلغَ من العمرِ خمساً وثلاثين سنة .

وذاتَ صباح ، كان أحمدُ يجلِسُ عند سورِ بيته ، وقد أوْقدَ نارا ، وراحَ يصنَعُ ثُقوباً للمسامير فى حدوةٍ تتقدُ كالجمر . وبين حينٍ وآخر يمسَحُ عرقَ جبِينه فى كُمِّه . وفجأة ، أقبلَ نحوَه فارسانِ من الفِرنْجة ، خارِجيْن عليه من غابةٍ قريبة . وتوقفا عنده بفرسيْهما ، وقال له أحدُهما ، وهو ينزِلُ عن فرسِه :

ـ أنت يا نعَّال .

فألقى أحمد بالحُدْوَة ، وانْتَفَض واقِفا ، وقالَ فى غَضَب :

- لستُ نَعَّالا . أنا بَيْطار ، أعالِجُ . . الحيوانات ! !

فتضاحَك الفَارِسان ، وقال له الآخر :

- صِناعتُك هى الحيواناتِ فى الحالين .

فقال لهما أحمدُ بسخرية :

- نعَمْ . حِرْفتى هى . . الحيوانات ! ! ماذَا تُريدان ؟ نِعَالا ، أم . . عِلَاجا ؟

فقالَ أحد الفارسَيْن :

- نُريدُ حَدَاوى لِفَرَسَيْنا .

وعَبَر أحمدُ بابَ بيتِه إلى حوشه . وكانتْ « نُعْمى » واقفةً بجانِبِ سَلّةٍ من خُوصِ النخيلِ ، مليئةٍ بالحَدَاوى والمسامِير . وانْتقى أحمد ثمانِىَ حَدَاوى ، ومساميرَ كبيرةً .

وقالتْ نُعْمى لزوجِها مُحذرة :

- احتَرِس من هذيْن الفارسَيْن . فهُما فيما يبدُو من أشْرَارِ الفِرنْجة ، الذين تسلَّلُوا إلى الغابةِ ، فى غَفْلةٍ من فُرْسَانِنا العرب .

فقال لها أحمد بدَهَاء :

- لا تخافِى . سأدُقّ لِفرَسَيْهما حَدَاوى بمساميرَ كبيرة ،

تُحْدِثُ لهما آلاما فى السير ، فلا يقدِر الفَرَسَان على العَدْو والهرَبِ فى الغابة ، حين يلمحُهُما فُرْسَانُنا العرب .

وعادَ أحمد بالحَدَاوى والمسامير . وأخذَ ينزع الحَدَاوى المتآكِلة من حوافِرِ الفَرسَيْن ، ويدقُّ الحَدَاوى الجديدةَ مكانَها بمسامير كبيرة . وكانَ الفارسانِ قد جَلَسا يَسْتَدْفِئَان حوْلَ النّار ، ويشربَان خمراً من زُجاجَةٍ . بيْنما كان « عبدُ الله » واقفاً عندَ مُنْعَطَفِ السّور يرقُب أباه ، والفارِسَيْن ، والفرَسَيْن . ورآهُ أحدُ الفارِسَين فصاح به :

- أنت يا غُلام . تعال .

فتراجَع عبدُ الله ، واختفَى وراءَ زاويةِ السّور . فهمّ الفارِسُ بالقِيام إليه ، فقالَ لهُ الفارِسُ الآخر :

- دعْك منه . إنهُ ولابُدّ واحدٌ من هؤلاءِ الأيْتام الذين قَتَلْنا آباءَهُم .

وأغْرَقَ الإثْنان فى ضَحِكٍ قَبِيح .

لا تشرب يا أبى

كان أحمدُ قد انتهَى من عملِه ، ووقَفَ قلِقاً على ولدِه « عبد الله » يخْشَى أن ينالَه أذىً من أحَدِ الفارسيْن ، ونهض

الفارسَان واقفين ، واتّجهَا نحو أحمد ، وقدّم له أحدُهما زُجَاجَةَ الخمْرِ قائلاً :

ـ خُذْ واشْرَب . لم يبْقَ فى الزجاجةِ سِوى قَدَحٍ صغِير .

فقال أحمدُ بحزم :

ـ لا . إنّها خمْر . قليلُها وكثيرُها حَرام . حرّمها الله من فوقِ سبْعِ سمَاوات .

فقالَ له أحَدُ الفارسيْن بغِلظة :

ـ إذا لم تشرَبْ حَرَمْناك من أجْرِك .

فقال أحمدُ ناهِرًا :

ـ لا أرِيدُ منكما أجراً . ارْكبا فَرَسَيْكما واذْهَبا .

فصاحَ الفارِس الآخرُ غاضِباً :

ـ لن تقهَرَنا أنتَ وقومُك ، ستشرَبُه ، وإلا قتلْناك .

وأمسك أحمدُ بالزّجاجة ، وقد خافَ على نفسِه من القتْل ، وراحت يدُه ترتعِدُ بتردُّد ، والفارِسان ينظُران إليه . وفجأة ، اندفعَ عبدُ الله نحو أبيهِ أحمد ، وهو يصيح :

ـ أبِى أحمد . أبِى أحمد . لا تشرب يا أبىِ .

وضربَ عبدُ الله الزجاجة بيدهِ ، فوقعَت من يدِ أبيه على الأرض ، وانسكَبَ ما بها . وجَرى عبدُ الله مُبتعِداً اختفَى فى

قلْبِ الغابة . وفى الحال ، وثَبَ الفارسان على فرسيْهما ، وعَدَوا بالفرسيْن وَراءه ، واختَفَيا فى قلْبِ الغابة . ودبَّ الخوْفُ فى قلبِ أحمد على مصيرِ ولدِهِ عبدِ الله ، وقبْلَ أن يجرِى وراءَ الفرسيْن ، إذا به يُحِسّ بيدٍ تجذِبُ ثوبَه ، وبصوتٍ يقُول له :

ـ أبِى .

والتفت أحمد فرأى ولدَه عبدَ الله ، فجثَا بجانِبِه ، وهمَسَ بفرَح :

ـ الحمد لله . كيف خدَعْتَهما ، وعُدتَ إلىّ .

فقال عبد الله وهو يضحَك :

ـ دخلتُ الغابة ، ثم خرجْت منها ، ودُرْت حوْلَ البيت ، وعُدْت إليك ، وتركتُ هذيْن الفارسِيْن يبحثَان عنّى فى الغابةِ .

وسمِع الإثْنانِ أصواتَ عدو الخيل فى الغابة ، وأصواتَ صَليلِ السيُوف ، ثم سمعا صوتى الفارسينِ يصرخانِ فزَعا ، واحِداً بعدَ آخرَ ، ثم . . سادَ الصمت ، فقال أحمد لعبد الله :

ـ لقد لحِق فُرْسَانُنا بالفارسيْنِ وقتَلاهما . عاقَتْ هَربهما مساميرِ الكبيرةُ يا عبدَ الله .

طاب صباحك يا صاحبى

كان عبدُ الله قد بَلَغ من العُمرِ عشْرَ سنوات . وكان يعرِفُ أسْرارَ حِرْفةِ البَيْطرة ، لكنَه لَم يكُن يُحبّ العَمَل . كانَ يُؤْثِرُ ، فى كلّ نهار ، التجوُّلَ فى الغابةِ حوْل « مَلَقا » والسير على شاطئِ البحر ، والنهر . ويُحِبُّ الأشجارَ والزهُورَ والطيور . وكان قد نامَ فى الليل ، وأبواه ينظُران إليه بحنان ، وأخذا يتحدثان فيما آلتْ إليه حالُ الأندلس فى عهدِ مُلوكِ الطوائِف (أمراء الدُوَيْلات) ، ثم فى عهد المرابِطين الذين قضوا على دُوَيْلات الطوائِف ، وهَزَموا الفِرنجة فى موقعةِ « الزَّلّاقة » ، ثم فى عهدِ الموَحِّدِين الذين قضوا على دولةِ المرابطين ، وهَزَموا الفِرنجة فى موقعةِ « الأَرْك » . وقال أحمد لِنُعْمَى بمرارة :

- هل استطاعَ الموحّدون أن يمنحُوا أهْلَ الأندلس شعوراً بالأمن ؟ هاهُمْ أعوانُ الفِرنجة من الإسْبان يجوسُون فى الأندلُس عصاباتٍ إثْرَ عِصابات ، يقطعُون الطريق ، ويُخِيفون النّاس ، وينهبُون الأقوات .

وتَنَهّدَت نُعْمَى ، وقالت :

- لو لمْ يكُن صلاحُ الدينِ الأيُّوبىّ فى مصر ، مشغولاً

بحروُبِه مع الصَلِيبِيّين فى الشام ، لمدّ إلينا يدَه لنَجْدَةِ بلادِ الأندلُس .

فقال لها أحمد بحزن :

- المأساةُ الكبرى مأساتُنا يا نعُمى . فمدينتُنا « مَلَقا » على البحرِ فى جنوبِ الأندلس ، والفِرنجة دَائِمو الإغارةِ علَيْنا بسُفُنِهم . وقد صارتِ الأندلُس وفى كلّ مدينةٍ حاكم ، وكلُّ حاكمٍ يديرُ ظهرهَ للآخر ، وتوشِك الأندلُس أن تضيعَ كلّها من يدِ المسلمين .

ونظر أحمد إلى ولدِه عبدِ الله ، وقد رقَدَ هانِئاً فى نومِه ، وهَمَس بقَلَق :

- رَاقِبِى عبدَ الله يا نعُمى مُنْذُ اليوم ، فإنّى خائِفٌ عليه من شُرُور الفِرنجة .

فى الصباح ، سارَعَ عبدُ الله مع شروقِ الشمس ، يغادِرُ بيْتَ أهلِه فى مَلَقا ، وفى يده قصَبَةُ صيد . وجَلَس على شاطِىء النهرِ يصيدُ سمكا . وعند الظهر ، حمل ما صادَه من سمك ، وسار بين الأشجار يُنصِت إلى أصواتِ الطيور . وحين مرّ ببغاءٍ صاحَ به :

- طاب صباحك يا صاحبى .



وَدخلَ عبدُ الله حديقةً للزهور ، سارَ فى طرقاتها ، وقعَدَ على قدميه يتأملُ شُجيْرَةً مزهرةً ، بديعةَ الألوان . أخذ يتحسَّسُ برِفقٍ بالغٍ ساقَها وغُصُونها ، ويلمِس أوراقَها ، ويتأمّل تويْجات زهورَها . وراقَه تكوينُ الزّهرة ، فأخذَ يرسمُ أَورَاقها وكأْسَها وغُصْنَها .

نبوءة عالم

وكان أحمدُ جالساً أمامَ سورِ بيْته يعمل ، حين وفَد عليهِ « ابْن الرومية » عالِمُ النباتِ العَطّارِ بإشبيلِيّة . فتَرَكَ أحمدُ عَمَلَه ، ورحبَّ بضيْفِه ، وحكَى له قلقَه على ولدِه عبدِ الله ، الدائمِ التجوُّل فى الغابة ، وعلى شاطىءِ النهر ، وفى البسَاتين ، وحدّثه عن غرامِهِ بالزهورِ والأشْجار ، وعنْ خوفِه على عبدِ الله أن يصِيرَ يوماً شقِيًّا من الأشْقياء ، أو يذهَبَ ضحِيةً لهؤلاءِ الفُرسان الإسْبَان الذينَ يجُوبون الغابَات ، وحَدّثَه عن عُزُوفِ ولدِه عن العملِ معَهُ فى البَيْطرة . فضحِك ابنُ الرومية ، وقال :

ـ لو صحَّ حَدْسى يا أبا عبد الله ، فابنُك لن يكُونَ بَيْطاراً مِثْلك ، ما دامَ يُحِبّ البحرَ والنهرَ والغابَاتَ والأشجارَ والزهورَ . كنتُ مثلَه فى صباى . وأظنّهُ سيصيرُ مثلى عالماً

من علماءِ النباتِ والصيْدلة . ولسوفَ يأتِى يومٌ ألتقى به ، وأُغْرِيه بصُحْبَتِى ، والتعلُّم على يَدَىّ .

فقالَ أحمدُ بسَعادة وتَمَنٍّ :

ـ ياليْت .

ونهض ابنُ الرومية واقِفا وقال :

ـ سأعودُ إلى إشبِيلِيّة ، فتعالَ يوماً لزيارتِى ، وسوفَ تجِدُ عنْدِى سوائِلَ جديدةً لعلاجِ الحيواناتِ من النباتاتِ والمعادنِ .

وودّع أحمُد صاحِبَه ، وانصرفَ ابنُ الروميةِ مبتعداً ، وقد طرَحَ وراءَ ظْهرِه كيساً عامراً بما جمعَه من نَباتات طبِّية فى غاباتِ مَلَقا ، وتوجّه إلى جَبَلِ الفتْح .

رسوم بالألوان

عند سفْح جبلِ الفتح ، أخَذَ ابن الرومية يجمعُ أحجاراً بعينِها من الجبَل ، ورأى غُلاماً فى العاشِرة ، جالساً يرسِمُ فى دفترٍ من الذاكرة . وقد أوْقَدَ ناراً بجانِبه ، تفوحُ منها ، مع الهواء ، رائحةُ سَمَك يُشْوَى . واقترَب ابن الرومية من الغلامِ ، وقال وهو يجلِس :

ـ إن صَدَق حَدْسى يا بُنَىّ ، فأنْتَ هو عبدُ الله بن أحمد البيطارُ .

فقالَ عبدُ الله بدهْشة :

ـ نعم . أنا هُو . كيف عَرَفت ؟

فقال ابن الرومية ضاحكا :

ـ ملامِحُ وجْهِك يا بنى وَشَتْ بشبَهِك بأبِيك ، وانْشِغَالُك بالرسْم أكَّدَ لى أنّكَ هُو عبدُ الله . فقد حدثِنى أبُوك عن غَرَامِك برسْمِ الزهور . أَرِنِى ما رسمتَه يا بُنى .

ورأى ابنُ الرومية دفتر عبد الله ، وقد امتلأ برسومِ زُهُور متعددةِ الألوان . فقال بدهشة :

ـ عجبا ، كيْفَ عثرت على كلّ هذِه الألوان ؟

فقالَ عبدُ الله بزهْو :

ـ من أصْباغٍ اكتشَفْتها بنفسى ، أخذتُها من أوراقِ النباتاتِ والذّهورِ ، ومن لحاءِ بعضِ الأشجار ، ووضعتُها فى بعضِ المحابرِ . وحين أعودُ إلى البيت ، سأثبِّتُ رسومى بصمْغٍ مُخَفَّف .

ثم قالَ عبدُ الله بفِرَاسة :

- لقد عرفتُك يا سيدى ، فأنْتَ عالمُ النباتِ الإشْبيلِىّ : «أبو العباس أحمد بن محمد» . ابنُ الرومِيّة .

فقال له ابن الروميّة :

- صدقْت يا عَبْدُ الله . ويَقِيناً أنّ أباكَ حدّثك عنى ، مِثْلما حدَّثنِى عنْكَ .

وقال عبدُ الله برجَاء :

- ليتك تقبلنى يا سيدى ، وتعلّمُنِى ما تعرفه من معارف عنْ عالَمِ النبات .

فقال لَهُ ابنُ الدُومِيّة :

- مَعْملى مفتوحٌ لك يا بُنّى فى إشبيلية ، لكننى لا أنصحُك بذلِك الآن . ابقَ فى مَلَقَا بضعَ سنوات ، مَعَ الغاباتِ والأشجارِ والزهور ، والنهرِ والبحر ، وهذا الجبلِ العظيم ، الذى فَتَح منه الأندلُسَ «طارِقُ بن زياد» .

فقال عبد الله بدهشة :

- ولِمَ لا تصحبنى معك الآن يا سيدى ؟

فقال ابن الرومية :

- يا عبد الله . هذه الألوان فى دفترِك ، اكتشفتَها أنت

بنفسِك ، ولم يعرِفْها أحدٌ ممن هُمْ أكبَرُ منْكَ سِنّا ، وأكثَرُ عِلْماً وخِبْرة . ولا أُريد لكَ الآن أن تفْقِدَ دَهْشَتَك الأُولى حِيال الأشياء ، ومُحاولَتَك لمعرفَةِ أسرارِها ، حتى لا تتحجَّرَ معارِفُك عنْدَ حدودِ ما أعرفُه أو يعرِفُه غيْرِى عن عالَمِ النَّبات .

وكانتِ الأسماكُ قد نضُجَت على النار ، فأخَذَ ابنُ الرومية يأكُلُ مع عبدِ الله ، وهو يحُدّثُه عن أحجارٍ فى جَبَلِ الفتح ، جاءَ ليجمعَها كىْ يستفِيدَ منها فى تحضِيرِ عقاقيرَ لِعلاجِ الناسِ والحيوانات .

ليلة الرحيل إلى إشبيلية

ومرّت السنوات . وعَزَم عبدُ الله على الرحيلِ وحْدَه إلى إشْبِيلّيَة ، ليدرسُ عِلم النبات على يدِ ابنِ الرومية . وحَذّرته أمه نُعمى قائلة :

- احترِسْ فى طريقِك يا بُنّى من قُطّاعِ الطريق .

فقال لَها عبدُ الله مطمئِنا :

- لا تخافِى علىّ . فأنا فى الليلِ سأنامُ بين أغصانِ الأشجار ، وفى النهار لن أسِيرَ فى طريقٍ يألفُه الناس . ومعِى

خِنْجَرَان ، ويدِى لا تُخْطِىء الرمْىَ بالخِنجر ، وأنا أجيدُ العَدْو ، وفىّ خِفَّة الفهْد .

كان الليلُ قَمرِىّ الضوء . وكانت الأُسْرة الصغيرةُ جالسةً للعَشَاءِ فى ساحَةِ البيْت ، فى لَيْلةِ صيْف .

ومع بزُوغ الفجر ، وَدّع عبدُ الله أبويه ، وسارَ غربا فى قلبِ الغابة ، صوْب إشبيلية . ومشَى أبوه معه بعْض الطريق ، وهو يقول له :

ـ لا تنسَ يا بنُى أن ابنَ الروميّة عالمٌ أيضا بحديثِ رسولِ الله ، وبتفسيرِ كتابِ الله ، علمَه بالنبات . فلا تنْسَ حظّك منهما على يديْه . واكتُبْ إليْنا دائماً يا عبد الله مع بريدِ الخيل . وتعالَ لزيارتِنا بين حين وحين .

معمل ومشتل

فى العامِ السّادس من القرنِ السابِع الهجرِىّ ، التاسعِ من القرنِ الثالثِ عشر الميلادِى ، دخلَ عبدُ الله مدينةَ إشبيلية ، وكانَتْ خاضعةً مثلَ مَلَقا لِحُكم الموَحِّدين المغاربةِ . وتوجّه من فورِه إلى دكانِ ابنِ الرومِيّة العطار ، فرحَّب هذا به ، وصحِبَه إلى معْمَلِه الصغيرِ خلْف الدكان .

رأى عبْدُ الله المعملَ الصغير وقد ازدحَم بالمناضِد ، والدوارقِ والأنابِيب ، والزُّجاجات المليئةِ بسوائلَ مُلوّنة ، وقد أُلْصِقَتْ بها أوراقٌ صغيرة ، كُتِبَتْ عليها أسماء مختلِفة . ورأى جهازَ تقْطِير ، وجهازَ ترْشِيح ، وجهازَ تكْثِيف .

وصحِبه ابنُ الرومية إلى مشْتلٍ صغيرٍ وراءَ المعمل ، له سقيفةٌ ظليلة ، وقد غُرِسَتْ نَباتَاتٌ فى أرْضِه ، وأُخرىَ بأوانٍ من الخزف . وكانَتْ بالمشْتَلِ حُجرةٌ صغيرةٌ مُلْحَقة ، بها وسائِدُ شرقية للجلُوس بُسِطَتْ فوقَ حصِيرٍ مُلون ، ومِنْضَدَة واطِئَة للكتابة . وهُنا وهناك كانَتْ كُتُبٌ ودفاترُ فى عِلْمِ النّبات ، وعِلْمِ الحديث ، وعِلْمِ التفسِير ، وجَلَس عبْدُ الله وابنُ الرومية يسأَلُه عن أحوالِ أهْلِه ، وأحوالِ أهْلِ مَلَقا .

لماذا نكتب ونرسم ؟

ودخَل ابن الرومية يوماً على عبدِ الله وهو جالِسٌ فى المَعْمَل ، وفُوجِىءَ به جالساً يرسِمُ ما فى المعملِ من الأدواتِ والأجهزةِ . فقالَ له بدهْشَة :

ـ ماذا تفعَلُ يا عَبْدَ الله ؟

فقال عبدُ الله :

- كما تَرى يا سيدى . أرسِم ما تراهُ عيناى فى المعْمل . حتى لا أنْسَى شيئا . ففِى يومٍ ما سيكونُ لى معملى الخاصّ ، وأحتاجُ إلى هذهِ الرسوم . وقد يَنْسَى العقل . ولذلك أكتبُ ما أعلم ، وأرسِمُ ما أرَى .

وجلَس ابنُ الرومية ، وأطرَق ، ثم قال :

- إنك تتصّرف يا بُنى ، وكأنّك فى عجلةٍ من أمرِك ، وكأنّك على وشْكِ الهِجرة عنا يوماً ما .

فقال عبدُ الله شارِداً :

- لا أدرِى يا سيدى . لكننى إذَا ارتحلتُ يوما ، فسوفَ تكونُ رِحْلَتى فى طلبِ المزيدِ من العلم .

وصحِبَ ابنُ الرومية تلميذَه إلى غُرْفتِه بالمشتل ، وجلَسا معا كصديقيْن ، وقالَ ابن الرومية :

- تذكرْ يا عبدَ الله أن العِلمَ مُشْتَبِكٌ بعضُه مع بعض ، ويُؤَدِّى بعضُه إلى بعض . الطبُّ مثلاً : تشخيصٌ وعِلاج . والعلاجُ : أعشابٌ وكيِمياء . وفى العلاجِ عناصرُ من النبّاتِ والحيوانِ ، والمعادنِ . ولذلك لا بُدّ للطبيبِ من معرفةِ علُومِ النبات ، والحيوان ، والمعادنِ ، والكِيمياء .



النبات يحسّ مثل الإنسان

وفُوجِئَ ابنُ الرومية ذاتَ يومٍ بتلميذِه عبدِ الله واقفاً فى المشْتل ، فى ظلامِ الليْل ، يقول له :

- إننّى أفكرُ يا سيدى فى أنكَ لو نثْرتَ الأنوارَ فى هَذا المشْتَل ، فى الليل ، بالقناديلِ والمِشْكَاوات ، فسوفَ تظلُّ أكمامُ الزهورِ والأوْراقِ المنطبقةِ مفتوحَةً للضوءِ ، ويواصلُ النباتُ نُموّه وحياتَه وإزهارَه وإثمارَه ، كما يفعَلُ فى النهار .

فقال له ابنُ الرومية :

- إذن فأنْتَ تحرِمُ النباتَ من النوْمِ والراحةِ يا عبْد الله ، وتحرِمُه من التخلّص من سمُومِ الغِذَاءِ فى نومِه . ماذا لو فعلْتَ ذلكَ بإنْسان يا عبدَ الله ؟

فقال عبد الله كمن يكتشف أمراً غاب عنه :

- أعتقِدُ أنّه سيُصْبِحُ عصَبِيًا ، ويُصَابُ بالجُنون .

عندئذٍ قالَ ابنُ الرومية بعِتابٍ :

- لِمَ تُرِيدُ إذنْ للنباتِ أن يُجَنّ يا بنَىّ ؟ إنه يتألّم مِثْلما يتـألّمُ الحيوانُ والإنْسـان . ألا تَرَى نبـاتَ « الست المستحِيَة » ، ماذا يَحْدُث له عندما تقترِبُ منه ؟

فقال عبد الله بصوتٍ هامِس :

- تنطوِى زهُورُه ، وتنطبِقُ أوراقه . أجَل . النباتُ يحسُّ مثلما يُحِسّ الإنْسان والحيوان .

وقال ابن الرومية :

- لولاَ الضرورةُ يا بُنى ، وأن الأحْياء يستمدّون حياتَهم من حياةِ الكائنات الأُخرى ، لما كانَ لنا أن نقطعَ ورَقَةً ، أو نقطِفَ زهرة ، أو نجنِى ثَمرَة .

وصمتَ الاثنان . وجلَسا وحيديْن فى قلبِ الظلام .

تفوحُ حولَهُما روائِح الزُهوْر ، وكانَا يُنْصِتَان إلى أصواتٍ خَفِيّة ، لِسَرَيانِ الغِذَاءِ فى عُرُوقِ النّبَات .

العودة إلى مَلَقَا

وصحِبَ ابنُ الرومية معَه عبدَ الله فى زيارةٍ إلى غِرْناطة ، ليزوروا معاً حديقَة للنباتَاتِ النادِرةِ فى الدنيا ، يملكُها أميرُ غِرْناطة « محمدُ بن علِىّ » . ولم يكُنْ يسْمَح بدخُولِها لأحَد غيرِ العلماء ، من الأطباءِ والصّيَادلةِ ودارسى النباتات . وأمْضَى عبْدُ الله أيامَه فى حديقةِ الأمير ، يرسِم كُلّ النباتاتِ التى تراها عيْناه ، ويدوِّن أوْصَافها ، ويسُجِّل ما يحدّثُه به ابنُ الرومية ، وبُستانِىُّ الحدِيقة ، عن خصائِصِ هذه النباتاتِ فى العِلاج . وكان عبدُ الله قد بلَغ من العُمرِ خمساً وعشرين سنة ، حين أخَذَ يزرع بيدِه نباتاتٍ نادِرَةٍ فى حَديقَةِ الأمير .

وذاتَ يوم ، فى رُكنٍ بالحديقة ، جاءَ إلى الأميرِ محمد من يخبرهُ بغزْوِ الفِرنْجة لمدينةِ مَلَقا . تدفّقُوا عليْها من سُفُنِهم بالبحر ، واقتحمُوا أسْوارَها ، وقلْعتها ، وهبَّ أهلُ مَلَقا يحمِلُون السّيُوفَ والخناجِرَ ، يُقاوِمُون الغُزَاة .

وكان عبدُ الله قد توقّفَ عن الكتابَةِ والرسْم ، وجلَس

شارِداً ، وتقدّمَ منه الأميرُ محمد ، وقالَ له :

ـ فيمَ شرودُك يا عبدَ الله ؟

عندئذٍ وَجَف قلبُ عبدِ الله . ونَظَر بقلَقٍ بالغٍ إلى الأميرِ وأستاذِه ، وقال :

ـ ثمةَ أمْرٌ حدَثَ لِملَقَا وأنتُما تخفِيانِه عنى ، وتُمهِّدان لهُ بالحديثِ عن مَلَقا .

فقال له الأمير :

ـ صدقْتَ يا بنى . فقد أغارَ الفِرنجةُ من البحرِ على مَلَقَا ، بقيادةِ الفونسو ، وقاوَمَهُم أهْلُ مَلَقَا ، فانسحَبَ الغُزَاةُ بُسرعةٍ ، قبلَ أن يصْطَدِموا بجُيُوشِ الموحّدين .

حدَث ذلك قبَل يومين . ولم أعرِفْ الخبَر إلا اليَوْم ، مع بريدِ الخيْل .

وأطرَق عبدُ الله فى حُزنْ . كان يعرِفُ شجاعَةَ أهلِ مَلَقا فى مُواجهةِ الغزْو . ودبَّ فى قلبِه شعورٌ بالخوفِ على أهلِه ، فقالَ للأمير :

ـ إن أعارَنى الأميرُ جَوادا ، سارعْت بهِ إلى مَلَقا ، لأرَى أهْلِى ، وعسى ألّا يكونَ أحَدُهم قد أُصيبَ بسوء . ومَنَح الأميرُ جَواداً لعبدِ الله ، فطارَ به صوبَ مَلَقا ، يُسَابقِ سَاعَاتِ النّهار .



لم تعد الأندلس وطنا

وَجَد عبدُ الله أباه وأمَّه وأختَه بخيرِ حال ، وعلِمَ منهُم استشهادَ بعْضِ أقارِبه الأقربين ، ومن بينهِم زوْجُ خالتِه ، وابنُه ، وهُمْ يقاوِمُون الغُزَاة . وحزِن عبد الله لمصْرَعِ الرجال ، وقالَ أبوه أحمد مُواسيا :

ـ ماذا تنتظِرُ يا بُنَىّ من الحرْب سِوَى القتلِ لمن قُتِل فى القتال ، واليُتم لمن تيتّم من الأطْفال ؟ !

وتنَهد أحمد وقال :

ـ لكّن أهْلَ ملَقا سَرعان ما عادُوا إلى نسْجِ الحرير ، وصُنْعِ منتجاتِ الزَّعفران ، والتّين ، والعِنبَ ، والرّمان ،

واللوْز ، والنارنج ، وعملِ الصابون ، والفُخّارِ المذهب .
وعادَ الأوْلادُ إلى المدارِس ، والصوفيةُ إلى التكايا والوعاظُ إلى المسَاجِد .

وذهَب عبدُ الله مع أمّه فى الليل ، مَواسِياً ابْنةَ خالتهِ خضْراء ، التى فقدَت أباهَا وأخاهَا فى القتالِ ، وصارتْ يتيمةً من بعده .

وفكر عبدُ الله أن الأرْض بالأندلسِ تهتزّ تحتَ أقدامِ دولةِ الموحّدين ، فقد تَزايدت ضدَّهم ضرباتُ الفِرنجَة التى تكرُّ وتفرّ ، وتفجرّت فى وجُوهِهم خِلافاتُ القبائِل والعصبياتِ الجاهليةِ القديمة . وفتَحَ عبدُ الله قلبَه لأبيه وأمّه ، وراح يحاولُ إقناعَهما بالهجرةِ والرحيلِ معهُ إلى المغرب . فقال له أبوه أحمد غاضِبا :

ـ قُلْ إنك تهوَى الرحيلُ والأسْفار . لماذا لم يفكرْ أستاذُك ابنُ الرومية فى الهجرةِ من الأندلس مِثلَما تفكر ؟ ماذا يحدُث للأندلس ، لو فكّرَ كل أهلِها بيتاً بعد بيت فى الهجرةِ والرحِيل ؟

فقالَ عبدُ الله لأبيه ، وأمُّه تنظرُ وتسْمَع :
ـ أبى . فى يدِك حِرفة ، فأنتَ بَيْطار بارع ، ونعّال قدير . وستجدُ بحرفتِك رِزْقك أينما حَلَلْت فى دارٍ من ديارِ

الإسلام . وأَنا بحاجةٍ إلى أن أعرِف معارِفَ لا يعرفها ابن الرومية فى علمِ النبات ، وهى عندَ عالِمِ النباتِ المغربى : « ابنُ الحجّاج » . فَكثيراً ما حدَّثنى عنُه شيخى « ابُن الرومية » .

فتنهّد أحمد وقال لعبد الله :

ـ أدركْتُ أنّك لأجلِ هذه الغايةِ تحمِلُنا على الرحيلِ يا عبد الله . الأمْرُ لله ، فلا أطيقُ بقاءً وأنتَ فى ديارٍ بعيدةٍ عنا ، وتعيشُ فى وبُعدِك قَلِقاً علينا ، ولا أُرِيدُ أن أحمِلَك على البقاء ، وأحرِمَك من طلَبِ العِلم .

وابتهجَ عبدُ الله والتفتَ إلى أمّه ، ليسمَعَ رأْيَها ، فقالت :

ـ لا أُوافق على الرحيلِ إلا بشرْط . وشرطِى يا عبدَ الله ، أن تتزوّج قبْلَ رحيلِنا من ابنةِ خالتِك : « خضْراء » ، ونصحبُها هى وأمُّها مَعَنا إلى ديارِ المغرب .

وداع . . إلى حين

تزوّج عبدُ الله من « خضْراء » . وعادَ عبْد الله إلى إشبيلية فى سفْرَةٍ قصيرةٍ لوَداع أستاذِه ابنِ الرومية . ولم يكدْ

عبدُ الله يُلْقى عليهِ بالتحّية ، حتى قالَ له شيخه :

ـ لهجتُك يا عبدَ الله لهجةَ مُودِّع . وعطرُك يا عبْدَ الله عِطر عُرس . اجْلِس يا عبدَ الله ، وافتحْ لى قلبَك .

وجلَس عبد الله وقال :

ـ سأسَافِرُ وحدِى إلى المغرب ، وأدبّرُ لأهلِى داراً يُقِيمُون بها ، ولأبِى دُكانا يمارِسُ عملَه فيه ، حتى لا يُمارِسَ عملَه فى البيت مِثْلَما كان يفعَلُ فى مَلَقا . وقد جئْتُ مودِّعاً لك ، وعزَمْت على أنْ أقضِىَ مَعَك ليلةً فى المشتلِ ، فى ضوءِ القمر .

فى الصباح ، أعطَى ابنُ الرومِيةِ لعبدِ الله رسالةَ توصيةٍ كتَبها لصديقه أبِى الحجَّاج ، وقال له :

ـ أبُو الحجَّاج عالِمٌ يا بُنّى . وتلامِذَتُه أصدقاؤهُ ، وهو خبيرٌ بالمغرِب وأهلِه ، وسيعاوِنُك لتسكُنَ داراً مع أهلِك ، وتحصُل على دكانٍ لأبِيك .

ومع الضّحى . عادَ عبدُ الله من إشبيلِيَّة إلى ملَقا ، وأقامَ مع أهلْه وعرُوسِه أياما ، وصحِبَه الأهلُ والأقاربُ إلى ميناءِ ملَقا مودّعين إلى حين . وحملَتْه سفينةٌ شراعِيةٌ صغيرةٌ صوْبَ الجنوبِ إلى مدينةِ سبتة . وامتلأ الشّراع بريحٍ شَمَالية .

سأعلمك لغة اللاتين

ررحبَ أبو الحجَّاج بعبدِ الله ، وقرأَ رسالةَ صديقهِ ابن الرومِيّة بعينيْن مُندَّاتيْن بدموعِ الحنينِ ، وراح يسْأل عبدَ الله عن أحوالِ صديقهِ ابنِ الرومية ، وأحوالِ أهلِ الأندلس فى ظلّ دولة الموحّدين المغربّية . وباتَ عبدُ الله ليلتَه عندَ أستاذِه الجديد ، يحدّثه فيما عرفَه من المعارفِ عن علومِ النبات ، إلى أن صاح ديكُ الفجر . وقالَ أبُو الحجّاج :

ـ يا بُنّى . لن تجدَ عِندى سِوَى القليلِ من المعارِفِ عن النبات . وإن أردْت المزيدَ يا عبدَ الله ، فعليْك بالتجوّل بضْعَ سنواتٍ فى بلادِ اليونانِ والرّومان ، لترَى النباتاتِ والأعشابَ هناكَ بعينْيك ، وتُسجِّلَ أوصافَها بنفسِك ، ورُسُومها بيدِك ، وتلْقى أحفادَ عالِمَىْ النبات : « ديسْقُوريدس » و « جالِينوس » . وتأخُذَ عنهم معارِفَهم عن النباتاتِ كتابةً ومُشَافَهَةً .

فقال عبدُ الله بلهْفَة :

ـ كم أودُّ ذلك . لكننى ، لا أعرِف يا شيْخِى لُغَةَ اللاّتين .

فابتَسَم أبُوالحجاج ، وقال :

ـ أنا أعرِفُها ياوَلدى مثلَ أهْلِها . وسأعلِّمُها لك ، مع ما أعرِفُه من المعارِفِ عن النبات . ولسوْف تُقيمُ معَنا فى سبْتَةَ بِضْعَ سنين ، إلى أن تُجيدَ لُغةَ اللاّتين .

واستأجَرَ أبُوالحجاج لآلِ عبدِ الله داراً مشمِسةً ، طيبةَ الهوَاء ، واسِعةَ الساحة ، تحدُّها أربعُ طرقات ، واستأجَرَ لأبيه دُكاناً بمدخِلِ سوقِ سَبْتَة ، يغدُو إليه الفُرْسَان ويرُوحون . وبعَثَ عبْدُ الله ، مع بريدِ البَحْر ، رسالةً إلى أبيه فى مَلَقا ، للقدومِ إلى سَبْتَة .

العلم لا وطن له

أقَامَ عبدُ الله مع أهلِه وزوجِه فى سَبْتَة . كانت سَبْتَةُ مدينةً تُشْبِه مَلَقا ، ولهاَ ميناءٌ على البحرِ مثل ميناءِ مَلَقا . فلم يشعُرْ أبُوه أحمد ، ولا أمّه وَلاَ أخته ، ولا عَروسه بغربةِ المكان . وراجَتْ حِرْفةُ أحمد البَيْطار فى المدينة ، فاتّسَعَ رزِقُه ، وكثُرَ قاصِدُوه ، وتفرَّغَ عَبدُ الله لملازمَةِ أستاذِه أبِى الحجاج نصفَ النهار ، ونصْفَ الليل ، يتعلّم على يديْه معارِفَ النبات ، ولُغَةَ اللاّتين . وبدَتِ الحياةُ طيِّبة لعبدِ الله وأهلِه بضْعَ سنين .

وعزمَ عبد الله على الرحيلِ إلى بلاد الإغريق

(اليونان) ، والروماِن (إيطاليا الآن) ، فلم يعُد فى المغرب ثمَّةَ مزيدٌ من العلم يَبْقى لأجلِه ، ولا جديدَ من نباتاتِ المغرِب لا يعرفُه ، وقد أتْقَنَ اللغةَ اللاتِينيةَ حديثاً وكتابة . وخرَجَ الأهلُ وأبوُ الحجّاج يودِّعون عبْدَ الله فى ميناءِ سَبْتَة . وقال له أبو الحجّاج :

ـ أعلمُ وأنا أودّعُك يا عبد الله ، أنك لن تعودَ إلى المغرِب ، وقد أحْبَبْناك ، عقْلاً وخلقا .

فقال لهُ عبدُ الله :

ـ الله وحده يعلَمُ يا شيخى متَى يلتقِى الأحياء ، ومتى يفترقون .

وتضاحَك أبو الحجّاج ، وهو ينظرُ إلى وجهِ عبدِ الله ، وقال :

ـ من حُسْن حظّك يا عبدَ الله أن لكَ وجهاً أشقَرَ ، وعينين مُلوّنتين ، سيحمِيك هذا الوجهُ فى بلادِ اليونانِ والرّومان من أذىً كثير . وإنى أشيرُ عليك ياعبدَ الله ، أن تختارَ لنفسِك اسماً من اسمائِهم تتسمّى به ، فلا يعرِفُ العامّةُ من أنت ، ويظنُّونك واحداً منهم . وإن لم تفضحْك لهجتُك العربية فلن يصيبَك منهم سُوء . ولاضيْرَ عليك يا عبدَ الله من علماءِ اليونانِ والرّومان ، إنْ عرفُوا اسمَك ودِينَك ، مادامُوا

يعرِفُون أن العلمَ هو غايتُك . فالعلمُ لاوطنَ له يا بنَىّ . ولا تجاهِرِ الأقوامَ هناكَ بدينِك ، واسمِك ، ولغتِك . فهم جميعاً فى حربٍ معنا فى الشام ، وفى الأندلُس ، وفى جزرِ البحرِ الذى نشرِفُ عليهِ من سَبْتَة .

وقال عبدُ الله لأمّه نُعْمى وهو يودّع أهلَه :

ـ الآنَ أودِّعكم وأنا مطمئِنُ القلبِ عليكُمْ فى سَبْتَة ، وقد عوّضَنا الله بها عن ملَقَا .

فقالتْ له نُعْمى وهى تتنهّد :

ـ ليسَ هواءُ سَبْتَة مثلَ مَلَقا ، ولا البحرُ ، ولا الأشجارُ ، ولا الخضرةُ ، ولا الزهورُ ، ولا الفاكهة ، أعانَنا الله على الحنِينِ إلى مَلَقا .

فضحِك عبد الله وقال :

ـ حين تشتاقِين إلى مَلَقا يا أمى انظُرِى إلى خَضْراء ، ونادِى عليها باسْمِها . ففِى وجهِها سِحْرُ مَلَقا ، وفى اسْمِها خُضْرَةُ الأندلُس .

وعانَقَ عبدُ الله أهلَه وأستاذَه مودّعا ، وعيون الجميع مُنَدّاة بالدُّموع ، وعَبَرَ الشاطِىءَ إلى سفينةٍ كبيرة ، ستحملُه علىَ صفحةِ بحْرِ الروم (البحر الأبيض المتوسط الآن) ،

وترسُو به يوماً فى ميناءِ « سالِرْنو » بصقلية ، ثم تشقّ طريقَها فى البحرِ إلى البندقية (فينيسيا الآن) ، ليهبِط عبدُ الله فى ديارٍ غريبة لا عهْدَ له بها ، وربما لا تُتَاح له منها أن يرسِلَ رسالةً إلى أحَدٍ بالمغرب أو بالأندَلُس . وكانتْ خضْراءُ تنتظِرُ وليدَها الثانى ، الذى لنْ يشهَدَ عبدُ الله مولِدَه .

رسالة من دمشق

مضتْ سبْعُ سنواتٍ على عبدِ الله فى ديارِ اليونانِ ، والروّمان ، لم يسمَع فيها أبُوالحجّاج ، ولا أحَد من الأهلِ خَبراً عن عبدِ الله . حتى خشِيَ الكلُّ أن يكونَ قد صارَ ذكرى بعيدة ، وحُلْما عابراً ، ثم جاءتْ رسالةُ من عبدِ الله إلى أبِي الحجّاج ، حملَها بريدُ البحْرِ من الشام إلى تُونس . وفضَّ أبُو الحجّاج الرسالة ، وهو يشمُّ فيها عِطَر صديق ، وأخذَ يقرأ :

« انتهتْ سنواتُ سياحتِى فى بلادِ اليونان والرومان ، وقد احْتَفَى بِى يا شيخِى صديقُك العالِم « ديسْقورِيدِس الصغير » كما تسمِّيه ، وقبَّل رسالتَك ، وفضّها ، وقرأ ما بِها ، ووضعَها على رأسِه ، ولم يفارِقنى طولَ هذه السنوات فعلّمته ما أعرِفُ من معارِفَ عن النّبات ، وعلّمنى ما يعرِفهُ ، وازدَدْنا



معا معرفةَ بالتجوّل فى أنحاءِ البلادِ اليونانيةِ والرّومانية ، وزادَ فصحِبَنى إلى بلادِ البيزنطيين (آسيا الصغرى الآن) ، فسِحْنا بين نباتاتِها عاماً كامِلا ، ثم ودّعنى عند حدُودِ الشام ، فانحدرْت جنوباً إلى دِمشقَ الفيْحاء . وهأنَذَا أكتبُ إليك ، وقد عزمتُ على الرحيلِ إلى مصر ، والاستقرارِ بها ما بقِى لى من العُمر ، وعلى التردّد على الشام طلباً للمزيدِ من المعرفةِ عن نباتاتِ الشام ، خاصةً فى غوطة (بستان) دمشق التى تحيطُ بها كالسِّوار . . » .

وطوَى أبو الحجّاج رسالةَ عبدِ الله ، وقد استراح قلبُه ،

وهو يتمتم : « أحسنتَ اختيارَ مصرَ خاتمةً للمطافِ يا عبْد الله » . وتوجه من فورِه إلى دارِ أحمد البَيْطار فى سَبْتَة ، حاملاً معه رسالةَ عبدَ الله .

لقاء ملكىّ

نزل عبد الله إلى أرضِ مِصر ، ولهُ من العمرِ اثنتانِ وثلاثُون سنةً ، حملتهُ سفينةٌ يونانيةٌ إلى الإسكندرية ، ولم يلبَثْ أن ارتَحَل منْها إلى القاهرةِ الأيوّبية . واستأجرَ داراً فسيحةً بجزيرة الروضة ، فى قلبِ النّيل ، جنوبِىّ المدينة . وكانَ قد ادخر مالاً ، بممارستِه لمهنةِ الصيْدلة ، والبيْطرة أيضا ، وبيعِه لما يجمعُه من نباتاتٍ طبِّية للعطارين ، فى سنواتِ اغترابه ببلادِ اليونان ، والرّومان ، والبِيزنْطيِّين .

ولم يكدْ عبدُ الله يستقرُّ ليلةً فى بيتِه الجديد ، حتى فُوجىء بجنديٍّ أيوبّى يدعُوه إلى لقاءِ الملكِ الكامل فى قصرِه بحىّ الأزهر ، فدَهِش عبدُ الله ، وأشفَق على نفسِه من لقاءِ الملك ، واستمْهَل الجُندِىَّ بُرهة يرتدىِ فيها ثياباً تليقُ باللقّاء الملكِىّ . ثم ركِبَ معه فرساً قدّمه إليْه ، وسارَا إلى حَىِّ الأزْهر .

استقبلَ الملكُ الكامل عبدَ الله ، وفاجأَه بأنُه يعرف عنه

أنه قدِمَ إلى الإسكندرية قبلَ شهْر ، وعلى سفينةِ يونانية ، وأنُه على شىءٍ من الثراء ، فأدرَكَ عبدُ الله أن للملِك عُيُونه التى لا يخْفى عنها شىءٌ من أمورِ الغرباءِ والوافدين ، خاصةً وأن مِصْرَ فى حروبٍ مع الصليبيّين . وفَتح عبدُ الله قلبَه للملك الكامل ، فذَكَر له كلّ شىءٍ عن حياته ، ورحلتِه من مَلَقا ، إلى سَبْتَة ، إلى بلادِ اليونانِ والرومانِ والبيزنطيّين ، والشام ، وأن ثراءَه جَنَاه من عملِه فى الصيْدلة والبَيْطرة ، وبيعِ النباتاتِ الطبِّية للعطارِين . فقال له الملك الكامل :

- صيدلِىٌّ أنْتَ إذن ، وعالِمُ نبات .

فقالَ له عبدُ الله :

- نعَمْ . واسمِى هو « عبدُ الله بنُ أحمدَ بنُ البَيْطار » ، وكُنيَتى هى : « أبو محمد » ولقبى هو : « ضياء الدين » ، لقَبَنِى به أستاذِى الأوّل : أبو العباسِ الأموىِّ الإشبيلى .

فقال الملك الكامل بانْبِهار :

- ابنُ الرومية ؟ !

فقالَ له عبدُ الله :

- نعم . أتعرفه يا مولاى ؟

فقال الملكُ الكامل :

- ومن لا يعرفُ فى زمانِنا العالِمَ ابنَ الرومية يا أَبا محمد . بيْنى وبينَه رسائلُ فى مسائِلَ فى الحديثِ والتفسير .

واستأذَنَ عبدُ الله الملكَ الكامل فى أن يُرسِلَ فى طَلبِ أهلِهِ من سَبْتَة ، فأذِن له . وعادَ عبدُ الله يقول :

- وإن أذِن لى مولاى ، ألْحَقنى بزُمْرةِ الصيادلَةِ العشّابين بالبيمارستان (المستشفى) الناصِرِىّ .

فقال لهُ الملِكُ الكامِل :

- اذهبْ غدا ، وسلِّم نفسَك لقيِّم (المدير) البيمارستان الناصِرِىّ ، وسيخبِرُنى بمدى علْمِك وخبرتِك .

فى الليلةِ التالية جلسَ عبدُ الله فى دارِه بجزيرةِ الرّوضة ، المطلةِ على نهر النِّيل ، والأرضِ الخضراءِ الفسِيحة ، والأهراماتِ غربىّ النهر ، يكتبُ رسالةً إلى أهلِهِ بسَبْتَة ، يستقدمهُم إلى القاهرة ، على أوّل سفينةٍ كبِيرة ، تصمُدُ لأمواجِ البحْر ، فقد استقّر به المقامُ فى القاهرة ، وصارَ واحداً من الصيادلَةِ العشّابين فى البيمارستان الناصرِىّ .

وفرَح عبدُ الله ، وفرِح الأهلُ ، باللّقاء ، وجلَس عبدُ الله فى ضوءِ مِشكاة ، وحولَه الأهلُ ينظُرون إليه بشوْق ،

فى ليلةِ شِتاءِ ، وهو يقرَأُ رسالتيْن حملَهما بريدُ البحْر من شيخيْه : ابنُ الرومية ، وأبو الحجّاج .

العلماء ملوك لكل العصور

ولم تمضِ شهور ، حتى دعَا الملِكُ الكامِل عبدَ الله إليه ، ودعَاه للجلُوس معه على مقاعِدِ الملك ، فتحرّج عبدُ الله . فقالَ له الملِك الكامِل :

ـ اجلس يا عبدَ الله ولا تتحرّج . فنحنُ نعرِفُ أقدارَ العُلماء . العلماءُ مُلوك لكلّ العُصُور يا عبدَ الله .

وجلسَ عبدُ الله مع الملِكِ الكامِل ، فعادَ هذا يقولُ له :

ـ أخْبَرَنى أمسُ قيمُ البيمارستان الناصرِى ، أن مصرَ لم تعرِف قبلَك عالِما ، مثلَك ، بالصيدلةِ والأعشاب وتركيبِ العِلاجات . ولذلك يا عبدَ الله ستكونُ من الغدِ رئيساً للعشّابين فى مصر ، وقيِّما على خِزانةِ العقاقيرِ بالبيمارستان .

وشكرَ عبدُ الله المِلكَ الكامل ، وصَمَت الملك لحظةً ، ثم قال :

ـ أشِرْ علىّ يا عبدَ الله فى أمرِ استيلاءِ « جان دى

بريين » الطِرْنسى على مدينة « دِمْياط » . فقد استمعتُ لرأى قادةِ الحرب ، ووجَبَ علىّ أن استمِعَ لرأىِ العلماء . كيف يمكن لنَا أن نستردَّ « دِمْياط » .

كان عبدُ الله يعلمَ ، مَدَى حُزْن الناسِ على ضياعِ دِمْياط ، ويعلَمُ أن الملِكَ الكاملَ قد بنَى الاستحكاماتِ جنوبِىّ دِمياط إلى المنْصورة ، لكن النهرَ لا يزالُ يتدفّق ، ويمكنُ أن تجتازَه سفُن الصليبيّين إلى الجنوبِ . وقال عبدُ الله :

ـ يا مولاى . أغرِقْ سُفُنا فى النهرِ جنوبِىّ دِمياط . فنمنَع بذلكَ سُفُنَ العدُوّ من التقدم ، ويظلّ النهرُ يجرِى فلا يغْرِق ما وراءهَ من أرض مصر .

من حرب إلى حرب

رحلَ الغُزاةُ الفرنسيّون بالصلح عن دِمْياط ، بعد أن قتلُوا وأحرَقُوا ونهبُوا ثلاثَ سنوات . وتفرّغ الملِكُ الكاملُ لإعادةِ بناءِ مصر ، بتحسينِ الرى ، وإقامةِ معاهِدَ جديدةٍ للعلْم ، وترويجِ الحرف ، وتكديسِ السلاح ، تحسُّباً من عوْدَةِ الغزاةِ الصليبيين قادمِين من أوربا .

وجاءتِ الأخبارُ يحملُها بريدُ الحمام ، بغزْوِ الهنغاريِّين

(البلغاريين الآن) للشام ، وغايتُهم دِمشق الفَيْحاء . وشعَرَ عبدُ الله بأنّ قلبَه يتمزّق بين المِحن التى تنزلُ على رؤوس الناسِ فى ديارِ الإسلام ، فى الأندلُس ، ومصر ، والشام .

ورحَلَ عبد الله مع الملكِ الكامِل وجيشِه لردّ العدْوان عن دمشق ، فسوْف يكونُ الجرْحى بحاجةٍ إلى خِبرْته بالصيدلةِ وبِالعلاج .

ونجحَ الملكُ الكامِل فى كسْر شوكةِ الحملةِ الصليبيّةِ الهِنغارية ، فأخذَ عبد الله يستفيدُ من أيامهِ بدمشقَ فى جمعِ الأعشابِ والنباتاتِ من الشّام .

الكتاب الأول

وعادَ عبد الله مع الملكِ الكامل إلى القاهرة ، وكانَ قد بلغَ من العمر أربعِين سنة . ودعَا إليه تلميذَه « إبراهيم ابن موسى » ، وأخذَ يُملِى عليه كتاباً بعنوان : « شرْح كتابِ دِيسْقورِيدس فى الأعشاب » . فقال له إبراهيم :

ـ عفْوا يا شيخى . إنك تعرِفُ أكثر مما عرفَه ديسْقورِيدس وجالِينوس عن النبات .

فقال له عبد الله :

ـ يا إبراهيم . علَيْنا أن نبَدأ بالينابِيع ، ثم نرتقِى منها إلى ما نعرِفُه نحن . لقد كتب العربُ وغيرُ العرب فى الأعشابِ مائةً وخمسِين كتابا . لكنناّ لن نتوقّفَ منها إلا عندَ كتاب دِيسْقورِيدس ، لأنّه ، فيما أعلم ، النبعُ الأول لكلّ ما كتَبه العرب ، وقد أساءَ الكثيرُون شرْحَه ، وفهْمه ، وترجمةَ ما فيه من مُصطلحاتٍ وأسْمَاء .

اقتسام القدس

ومرةً أخرى عادَ الصليبيون من الألمان والصقلِّيين بقيادة « فرِدْريك الثانى » يغزوُن أرضَ فلسطين ، وكانت غايتهُم هى استردادُ بيتِ المقدس من أيدِى المسلمين ، وكان « صلاحُ الدين الأيوبى » قد استَعادَه من الصليبيين قبل أربعين سنة .

وقالَ « عبدُ الله » للملك الكامِل بدهشة ، وهُمَا جالسانِ معا فى قاعة العرْش :

ـ ماذا يُريدُ الفِرِنْجَة ، وطريقُ الحجّ للقُدس مفتوحٌ لهم منذ أربعِين سنة ؟

فقال الملك الكامل :

ـ إنهم يبغُون إعادة مملكةِ أُورشَليم فى القدس مرةً

أخرى . ولقد أمَرْت بإعدادِ الجيْش للحرْب . وسوفَ تكونُ معى يا عبدَ الله ، فى زمرةِ الأطباء فالمرضَى والجرْحَى سيكونُون بحاجةٍ إليْكم .

ومرةً أخرى عادَ عبد الله إلى الرحيلِ مع الملك الكامِل إلى فلسطين ، وحين عادَ كان وجهُه حزيناً ، وبدَا لأبيه أحمد كسيرَ الخاطر . جلَسَ عبد الله إلى أبيه أحمد ، أمامَ دكانِه للبَيْطرة ، بحىّ الروضة ، حيث يروح الفرسانُ إلى ثكناتهم ويغدُون . كان أحمدُ البيطار قد بلغ من العمر ستّين سنة . وكان يبدُو مُرْهقا ، وهو يطرقُ بِمطْرقةٍ حدوة لحصانٍ على سِنْدان . ونظَر عبدُ الله بحبٍّ وإشفاقٍ إلى أبِيه وقال :

- آن لك أن تستريحَ يا أبى .

فقال له أحمد :

- لاتُحدثنى عن الرّاحة ، وخبرْنى . ماذا فعلتُمْ لبيْتِ المقدِس ؟

فقال عبدُ الله باضطراب :

- لسنَا فى زمانِ صلاحِ الدين يا أبى ، فأمّة الإسلامِ شِيَعٌ وفِرَقٌ ودُوَل . ولم يجِد الملك الكامل مفرّا من عقْدِ الصلح بينه وبيْنَ الملك « فرِدْريك الثانى » ، على . . اقتسام القدس ! !

فصاح أحمدُ البَيْطار بلوْعة :

- اقتسام القدس ؟ !

فقال عبد الله بحزن :

- نعم . للفرنجة نصفُ ما بالقُدْس من أماكنِ المسيحيةِ المقدّسة ، ولنا النصفُ الآخر .

وعادَ عبد الله يقول ، وهو يرى أباه مُصَفرَّ الوجْه ، فى ساعةِ غُرُوب :

- على أىِّ حالٍ يا أبى ، لم ينجحْ الصليبيّون فى إقامةِ مملكةِ أورشليم .

فصاحَ أحمدُ فى وجهِه قائِلا :

- أقامُوها على النصفِ يا عبد الله . لا تخدعْ نفسَك أنتْ والملك الكاملُ يا بنُى . فلن ينخدِعَ الناسُ بأىّ تبريرٍ .

وعاد الإثنان إلى دِراهما بالرّوْضة ، وأحمدُ يردّد طولَ الطريق :

- سامَحَك الله أيّها الملك ! ! سامَحَك اللهُ أيّها الملك ! !

يوما ما ستعود القدس

فى الليل ، جلَس أحمد تحت شجرة ، فى حديقةِ البيت . وسمِعه عبد الله يقول ، متغنّيا بهمْس :

ـ بيتُنا على النهر . وعلى النهرِ سأجلسِ ، وأصيدُ السمك ، مثلما كنا فى مَلَقا . عندما كنتُ صغيرا ، كنتُ أصيدُ السمك . وغداً سأصِيدُ السمك مثلَما كنتُ صغيرا .

والتفَتَ أحمد إلى عبدِ الله ، وقال :

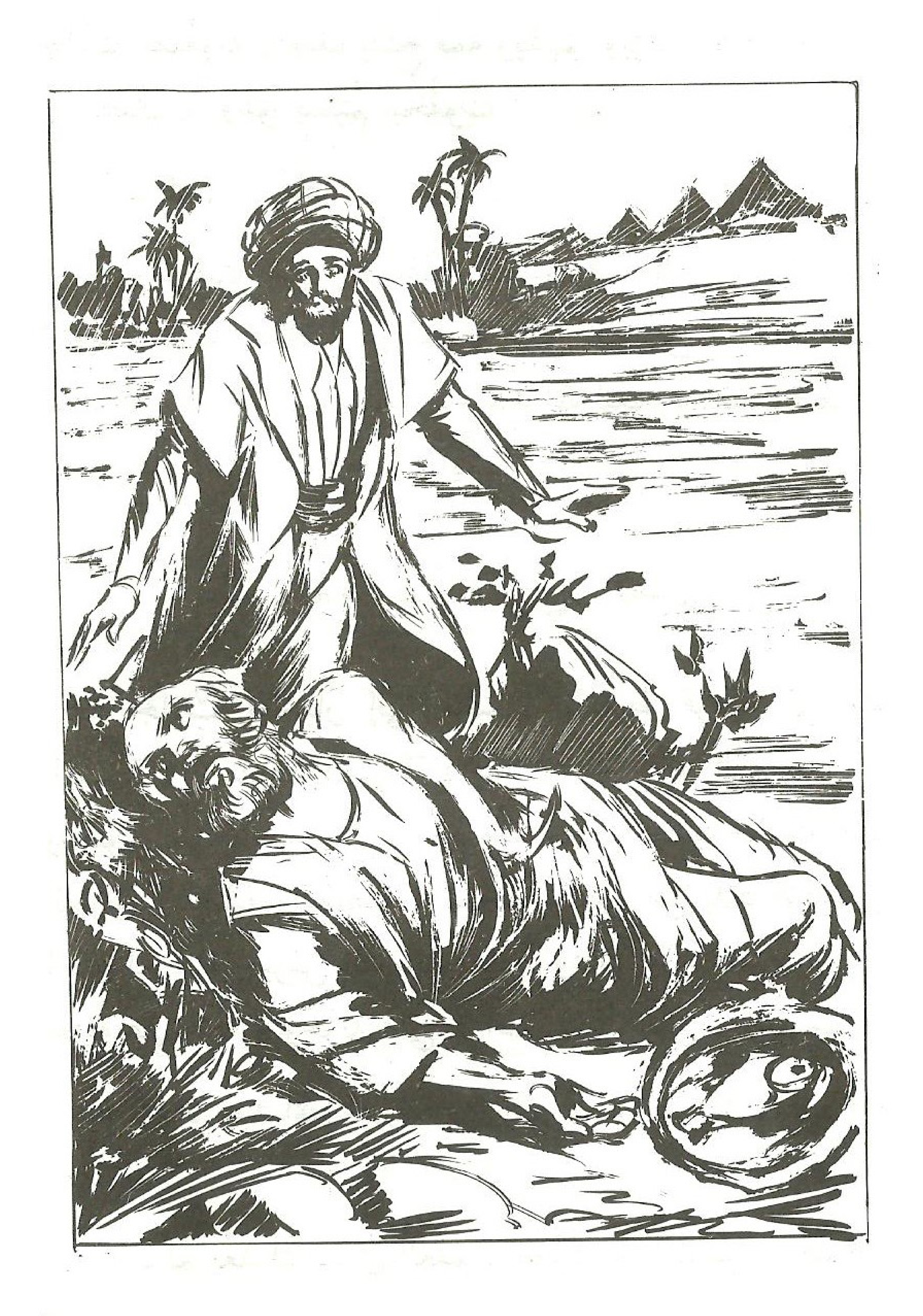
ـ ستتاحُ لى الفرصة ، وأنا أصيدُ السمك ، لأفكرَ فى مصائرِ المدائنِ والدُّوَل .

فقالَ له عبدُ الله مواسِيا ، بحزن :

ـ الأيامُ دُوَل يا أبى . ستعودُ القدس يوماً ما ، يوماً ما ستعودُ القدس .

آه . . مَلَقا

فى اليوم التالى ، جلَس أحمد البَيْطار على شاطىء النهر بالروضة . يصيد السمك بسنارة ، وبدا شاحب الوجه ، يَتفصّد العرَق غزيراً منه ، وشعرَ بالتعب ، فأخذ يتراجَعُ فى



جِلْسَته بصعُوبة . وبدا يفتَحُ فَمه ويشهَق ويزفِر لاهثاً ، وعيناهُ جاحظِتان ، وهو يتمتِمُ بخُفُوت :

ـ آه . . مَلَقا . . مَلَقا . .

وانزلَقت من يدِه غابَةُ الصيدِ فى النهر ، وأخذتْ تبتعِد ، بينما استلْقى هو بطولِهِ على الشاطىء ، وقد كفّ تماماً عن الحركة . وعندما جاءَ عبد الله ليعودَ به عندَ الظهر ، وجدَه قد أسْلَم الروّح لبارِئِها .

لم يعد لنا سوى العلم

جاءتِ الأخبارُ إلى مصر ، بسقُوط قُرطبة فى يدِ الفرنجة ، وسقُوط « مَيُورقة » بعد زوالِ دُولةِ الموحّدين . واستولَى بنُو الأحمر على مدينةِ مَلَقا ، ومن جديد عادَت دُوَل الطوائفِ القبليّة والطائفيّة ، تحكُم ما بقِى من بلادِ الأندلس الذى لم تَنلْه جيوش الفِرنجة بعد . وعاشَ عبدُ الله حُزْنَيْن : حزنَه على أبيه ، وحُزنه على ما أصابَ الأندلُس ، والقُدْس .

وعادَ عبد الله للارتحالِ إلى دِمشق . وقال لزوجِته خضْراء :

ـ لم يعُد لنا سِوى العلم ، نتعزّى به ونتصبّر . وقد كبِرَ

الأولاد يا خضراء وابنتُنا « رَنْدَه » صارَت عروسا ، والأعشابُ يا أمّ رندة تدعُونى إليها فى غُوطة دمشق ، فقد غرسْتها هناكَ بيدِى .

ابن الرومية فى مصر

ووفَد ابنُ الروميةِ إلى مِصر ، وهو فى طريقِ عودتِه من الحجِ ، لِيَلْقى تلميذَه عبدَ الله ، فوجَده غائبا فى دِمشق . وتركَ ابنُ الرومية لعبدِ الله فى بيتِه ، كتابَيْن من تأليفِهِ هُما : « الأدويةُ المفردَة » ، و « الرحلة النباتية » ، وواسَى نُعْمَى فى زوجِها ، وداعَبَ أبناءَ عبدَ الله وبناتِه . ثم توجّه فى يومِه لزيارةِ الملِك الكامِل .

ورحّب الملِك الكاملُ بعالِمِ الأندلُس ابنِ الرومية ، ودعَاه للبقاءِ معَه فى ديارِ مصر ، فقالَ له ابْنُ الرُّومِية :

ـ لا حياةَ لى بعيداً عن إشبيليّة أيها الملك ، وسأعُودُ إليها من غدِى . وقد جئتْ زائراً لك ، ولأقدّم لكَ كتابيْن لى ، أحدُهما : « نظمُ الدرارِى فى الحديث » ، والآخرُ : عشرةُ أجزاء فى « تفسير القرآن الكريم » .

وقضَى ابنُ الروميّة يومَه مع الملِك الكامِل ، يحدّثه عن

الأندلُس الخَضْراء ، ما بقِىَ منها فى أيدِى العرب ، وما ضَاع ، ولِـمَ ضَاع ! !

من ملِك . . إلى ملِك

كان عبدُ الله قد بلغَ من العمر اثنتَين وخمسين سنة ، وكان لا يزالُ بدمشق حين جاءتْه الأخبارُ بوفاةِ الملِك الكامل ، فسعَى عبد الله إلى ابنِ أخِيه الملِك الصالح « نجم الدين أيوب » ، فى قصْرِه بدمشق ، معزّيا . وقالَ الملك الصالح لعبدِ الله :

- آلَ الأمرُ فى مصرَ إلى ابنِ عمّنا الملِك العادِل ابنِ الملك الكامِل يا أبا محُمد . وإنْ شِئْت لحِقْت به ، وإنْ شِئت بقيتَ معِى :

وآثرَ عبْدُ الله البقاءَ إلى حينَ مع الملِك الصالح .

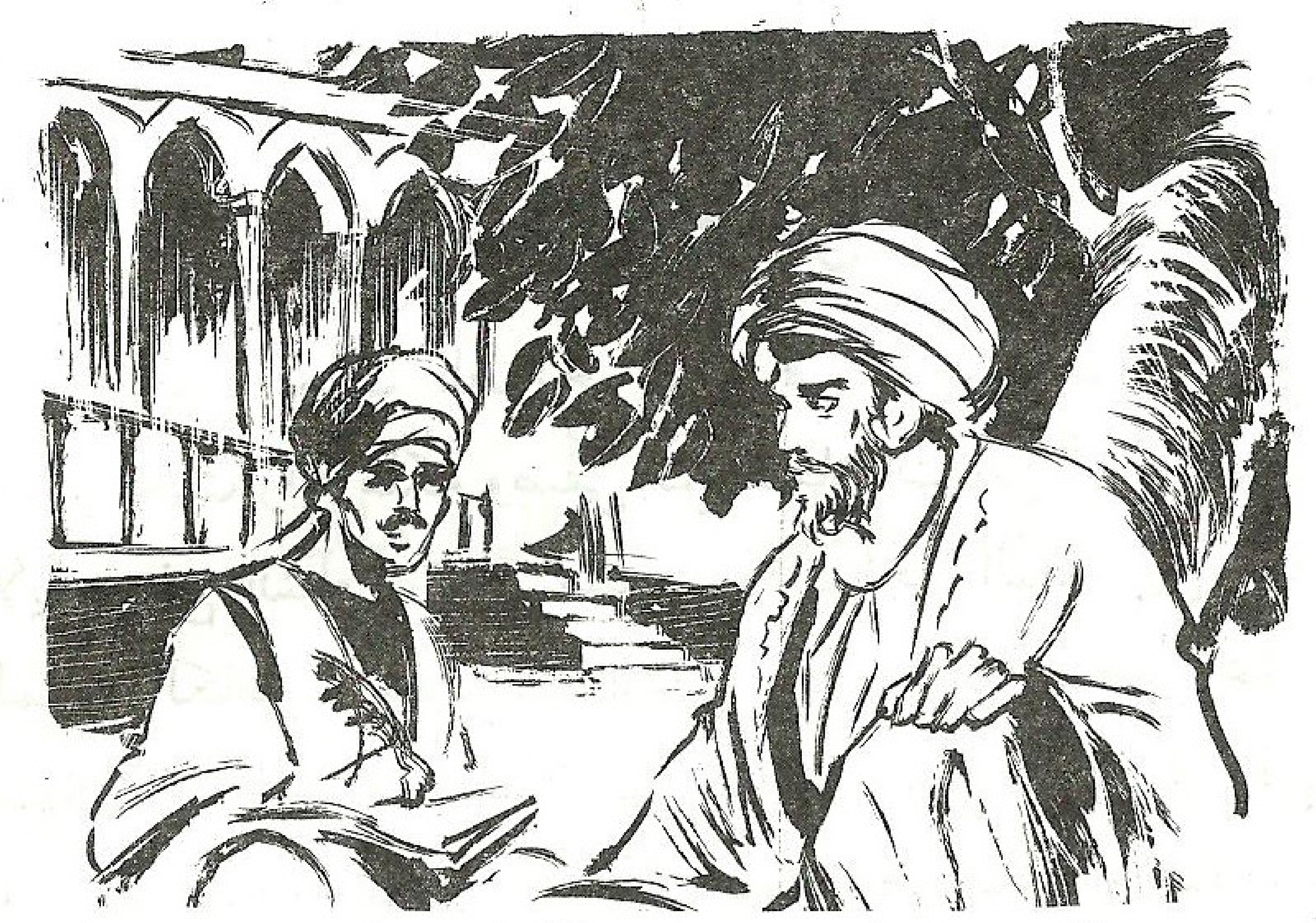
وعادَ عبدُ الله مع الملِك الصالح إلى مصر ، بعد عَزْل الملِك العادِل لسوءِ سلوكِه وسيرتِه فى تصريفِ أمورِ المُلْك ، فوجَدَ أن أمّه قد لحِقَت بأبيه ، ورقَدت معهُ فى قبرٍ واحد . وأن أولادَه قد تزوّجوا وصارَ لكّلٍ منهم بيْت .

عودة القدس

نجحَ الملكُ الصالحُ أيّوب فى توحِيدِ أمورِ الشامِ ومصر تحتَ رايةِ ملكه وصفّى كلّ الخلافات بينَ أمراءِ البيتِ الأيوّبى فى الشامِ ، وفى مصر . وكان أجَلُ الهُدْنةِ بين عمّه الملكِ الكامِل ، وفرِدريك الثانى ، قد انتهَى بمضىّ عشرِ سنوات . وطمِع الصليبيّون فى نصفِ القدس الذى بقِىَ فى يدِ المسلمين ، فأغارَ الإنجليزُ بقيادةِ « ريتشارد » صاحب « كورنويل » على القُدْس ، فنهض إليه الملك الصالح الأيوبّى بجيشٍ مُوحّد من أمراءِ مصرَ والشام وردَّ غارتَه ، وحَررّ القُدْس كلّها مرةً أخْرى .

وخلا قلبُ عبدُ الله للعلم ، فجلسَ إلى تلميذِه « إبراهيم بنِ موسى » ، وبينَهُما ورقٌ وأقلامٌ ومِحبرة ، على حصيرٍ تحتَ شجرةٍ بحديقةِ بيته ، وقال له :

- سأُمْلِى عليكَ يا إبراهيم كتابا أظنّه آخر ما سأمُليه من كُتب ، بعد كُتبى الثلاثة الأخرى السابقة : « المُغْنِى فى الطبِ » ، و « الأفْعال الغَريبة والخَواص العجِيبَة » ، و « شرح دِيسْقورِيدس » . فضَعْ على ورقةٍ مُفْردَةٍ يا إبراهيم هذا العنوان : « الجامعُ لمفردَات الأدويةِ والأغذِية » .



فكتب إبراهيم عنوان الكتاب الجديد ، وقال :

ـ إن أذِنْت لى يا سّيدى حدثتنى عنْ كِتابك قبْلَ أنْ تشرَعَ فى إملائِهِ ، لأعرِف كيفَ سيكُون نَسقى فى كِتابَتِه .

فقال عبدُ الله :

ـ إنُه كتابٌ يا إبراهيم ، أضعُ فيه خُلاصةَ ما عَرَفه الأقدمُون من قبلى ، والمعاصِرُون لى ، وفى طليعتِهم : الزهْرَاوىُّ ، والغافِقِىُّ ، ودِيسقوريـدس ، وجالينوس ، والإدريسى ، وأبقراط ، وما خبرتُه بنفسِى عن كلِّ ما قالوه . وسنجرِى ترتيبَ هذا الكتابِ أبْجدِيا على حُروفِ المعجم ، وفْقَ أسماءِ النباتاتِ والمعادنِ والحَيوانات ، وأرجُو من اللهِ يجعَلَه تاجَ كُتُبِى .

تاج الكتب

بلَغ عبد الله من العمرِ ستيِّن سنة ، وذهبَ عبدُ الله إلى صديقهِ الملِك الصالح « نجم الدين أيّوب » ، وجلسَ إليه ، وقدّم له كتابَه الجديد : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » . فابتهَجَ به الملكِ ، وأخذ يقلّبُ سعيداً فى صفحاته وهو يقول :

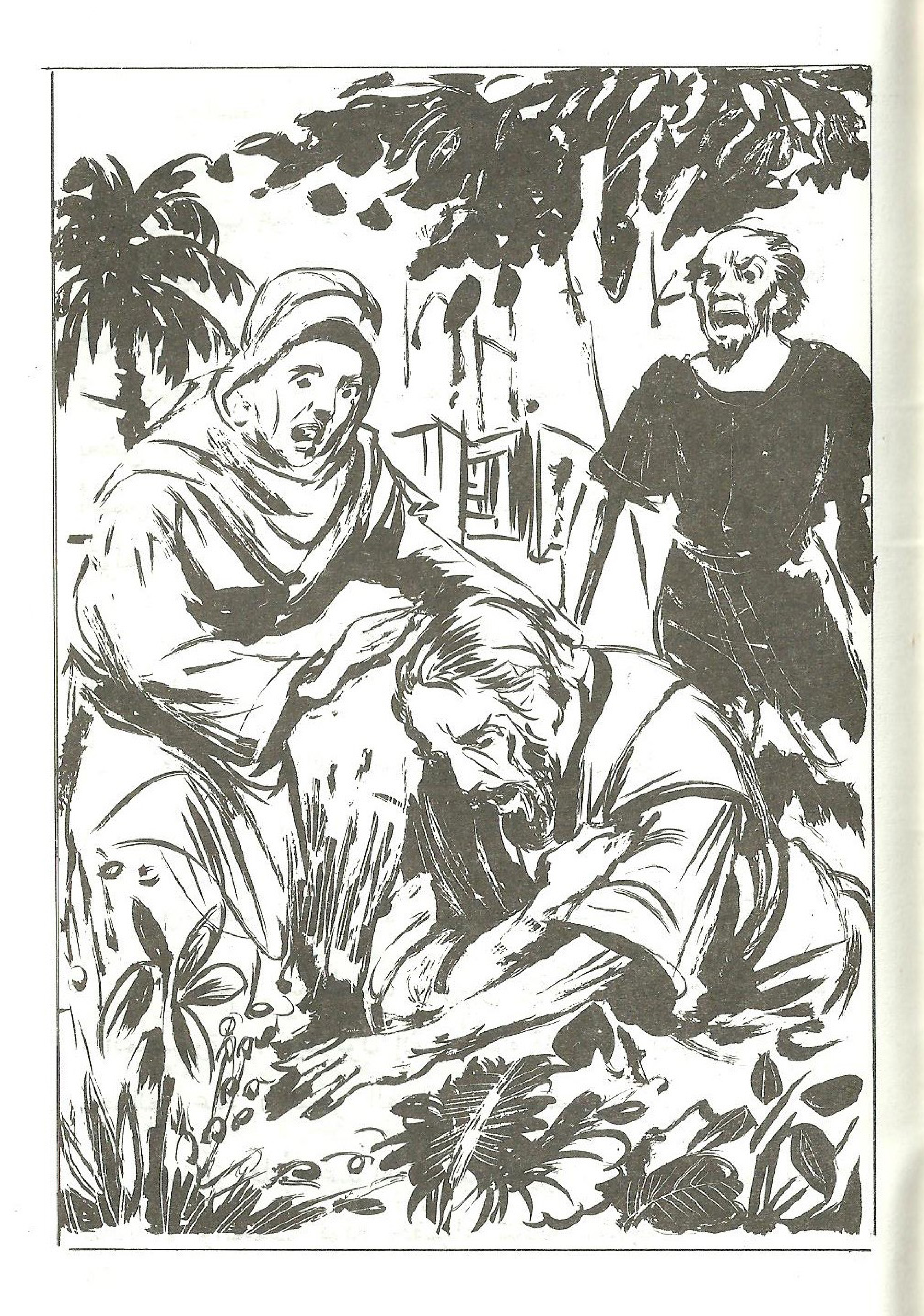
ـ كم صِنْفاً من الأدويةِ فى كتابِك يا أبا مُحمد ؟

فقال عبد الله :

ـ ألفُ وأربعمائةُ دواءٍ يا مولاى ، مرتبةً على حُروف المعجم ، بينَهما ثلاثمائة صنفٍ من الدواء ، لم يتناولْها عالِمٌ قبلى . وقد ذكرْت اسمْ كلِّ دواءٍ منها بالعربية ، والإغريقيّة ، والفارسيّة ، والإسْبانيّة الدارِجة . وقد ذكرْت مع كلِّ دواءٍ يا مولاى رأيِى فيه ، وآراءَ جميعَ من لهُمْ رأىٌ فِيه ، وعددُهم مائةٌ وعشرُون عَالِماً عربياً ، وعشرُون عَالِماً من الفِرِنْجة .

فقالَ الملِك الصَالح بإعجاب :

ـ هذهِ هى والله أمانةُ العلماء . فالله قدْ أمَرنا بردّ الأماناتِ إلى أهلِها . ومن ردِّ الأمانة نسبةُ كلِّ رأىٍ إلى صاحبِه .



ثم قال الملك الصالح لعبد الله :

ـ ماذا يقولُ كتابُك لنا عن « اللّبان » يا أبَا محمد ؟

فقال عبدُ الله وكأنه يحفظُ كتابَه عن ظهرِ قلْب :

ـ اللّبان يا مولاى هو « الكنْدَر » بالفارِسية ، وأجوَدُه فى ديارِ شحَر عُمان . ولدِيسْقوريدس ، وجالِينوس ، وابن سمْحون ، والدّينورِىّ ، آراءٌ فيه . وأجْوَد ما يكونُ منه يا مولاى هو « اللبانُ الذّكر » ، فهو يجلُو ظُلمة البَصر ، ويلزِقُ الجِراحات الطِريّة ، ويقطَعُ نزْف الدمِ ، ويمنعُ القُروح الخبيثَةَ إذا خُلِط بلبَن ، ويوقِف الأَلَم إذا خُلِط بزيْت أو خلّ ، ويَشْفِى من حروقِ النار إذا خُلِط بشحْم ، و . .

فقاطعَه الملِكُ الصالحُ ضاحِكاً ، وقال :

ـ حسبُك يا أبا مُحمد . الآن نأذَن لك فى السّفر أنتَ وأهلك إلى دمشق ، فأنتَ لها مُحِبّ .

فقال عبد الله بامتنان :

ـ حُبّى لغوطتها وأعشابِها يا مولاى . وما حجَزنى عن الرحيلِ إليها هذه السنوات ، سِوَى حِرْصِى على إنْجازِ هذا الكِتَاب ، فلا يعلَمُ إلا اللهُ وحْدَه ، متى يكون الأجل .

رجل أحمق

صحِبَ عبد الله زوجتَه خَضْراء معَه إلى دمشق ، تاركاً بيتَه بجزيَرة الروْضةِ إلى حينِ عودتِه ، واستأجَر بيْتاً متواضعاً فى غوطةِ دِمشق ، سكنَه هو وخَضْراء . ولم يكدْ يمرُّ علَيْهما فى الغوْطةِ عامٌ واحد ، وبينما كان عبدُ الله وخضراء يحزِمان بعضَ النباتاتِ الطبِّية ، أمامَ البيْتِ الصغير ، إذ جاءَ رجلٌ أحمَق من أهْلِ الغوطة ، وفاجأَ عبدَ الله بقولِه دونَ تمهيدٍ لما يقولُه :

ـ سقَطت دِمياط فى يدِ الملِك الفرنسى لويس التاسِع ! !

فبُهِتَ عبدُ الله للخبَرَ ، وهمسَ مُرَوَّعاً :

ـ ماذا ؟ !

وأضافَ الرجُل الأحمَقُ يقولُ بسرُعةٍ كابوُسيّة :

ـ نعم . سقَطَت ، ولويس يتقدّم الآن بجيُوشِه نحوَ « المنصورة » . ويقولُون إن عسْكره قد أحَاط بسُرادقِ الملِك الصالِح عندَ « البحرِ الصغير » بالمنصورة . . و . .

وخفَق قلبُ عبدُ الله خفقةً أخِيرة ، وسقَط بوجهِه فوقَ نباتَاتِه ، وانحنَت فوقَه خَضْراء تنادِيه ناشِجةً .

ولم يعِش عبدُ الله ليعرِف أنّ الملِك الصالح قد نجا بفضْلِ فُرْسَانِه من حصارِ الفِرنْجة ، وأنه قد مات على فراشِه ، وأن زوجتَه شجرةَ الدُر قد نهضَتْ بالأمرِ من بعده ، فتكتّمت خبَرَ موته ، وألحَقتْ جيوشُ المسلمينَ بالجيشِ الصليبِىّ الفِرنسى هزيمةً ساحِقة . وأسرَت الملِك لويس التاسع ، وسجنَتْه فى دارِ ابنِ لقُمان بمدينةِ المنصورة .

* * *

فى سنةِ خمسمائةٍ وتسعٍ وثمانينَ هجرّية ، ألفٍ ومائةٍ وتسعٍ وتسعينَ ميلاديّة ، وُلِدَ عالِمُ النباتِ الأندلُسِىّ المَالقى : « عبدُ الله بنُ أحمدَ البَيْطار » بمدينةِ « ملَقا » بالأندلُس .

وفى سنةِ ستمائةٍ وستّ وأربعِين هجرية ، ألفٍ ومائتيْن وثمانٍ وأربعين ميلاديّة ، وكانت وفاتُه بمدينةِ دِمشق ، ولهُ من العمرِ ستُون سنةً هجرية ، تسعٌ وخمسون سنةً ميلادية .

وبقيت ذكَرى العالِم ابن البَيْطار حيّة من بعدِه ، فى تاريخِ عِلْم النبات ، وعِلْم الطبّ وعلْمِ الصيدلة ، فى ديارِ الإسلام ، وفى أوربا ، إلى مطالِعِ عصرِ النهضة الأوربية ، وترجَم المستشرِق النمساوى « سونتها يْمر » كتابَه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » إلى اللغةِ اللاتينية بعنوان

« مفرداتُ ابن البَيْطار » فى العقدِ السابعِ من القرنِ التاسعِ عشر الميلادىّ . وترجَمه المستشرق الفرنسى « لكليرك » إلى الفرنسيةِ فى العقدِ الثامن منْ نفسِ القرن . ولا تزالُ شعوبَ الأندلس « إسبانيا الآن » ، والمغرِب ، ومصر ، والشام ، واليونان ، وإيطاليا ، تفخَر بأن « ابن البَيْطار » ، عالِمَ النبات ، عاشَ فى ديارِها عدداً من السنين .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٦ / ٣٦٦٤

مطابع الاهرام التجارية القاهرة ـ مصر